سلسلة الحي

2020
1.1.2020

غونزالو تافاريس

ترجمة: مهدي سليمان

Gonçalo M. Tavares

The Neighborhood

O Bairro, O Senhor Henri

السيد هنري

غونزالو تافاريس

من سلسلة "الحي"

رواية قصيرة

ترجمة

مهدي سليمان

تحرير

وليد الشايجي

2018

السيد هنري

غونزالو تافاريس

من سلسلة "الحي"

السيد هنري / رواية قصيرة
غونزالو تافاريس

ترجمة: مهدي سليمان
تحرير: وليد الشايجي

الإخراج الفني: ستوديو سيماء

الطبعة الأولى- إبريل 2018
978 - 9921 - 712 - 01 - 8 : ISBN
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية- دولة الكويت:
2018/416

Novella by: Gonçalo M. Tavares
O Bairro (Mr. Henry, The Neighborhood)
Published October 2012
By Texas Tech University Press
Translated From Portuguese by:
Roopanjali Roy
Translated from English by:
Mahdi A. Sulaiman
Edited by:
Waleed K. Al-Shaiji

حقوق هذه الترجمة ونشرها والاقتباس باللغة العربية محفوظة للناشر

هاتف: 51088000 965+ / 99462219 965+
البريد الإلكتروني: info@daralkhan.com
تويتر: @DarAlKhan_kw
انستغرام: daralkhan_kw

© Alkhan Publishing & Distribution
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.
إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

يدين الأدب دينًا كبيرًا
لمشروب الأفسنتين[1]؛ أكثر مما تظنون.
فهو سر الإبداع،
بل إن فضله على الأدب يفوق فضل الحبر الذي خُطَّت به السطور.

أليكساندر أونيل

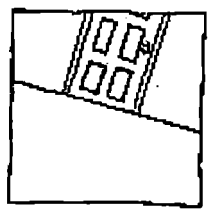

(1) مشروب مسكر لونه أخضر.

الإحصاء

قال السيد هنري:

- وُضِعَ علم الإحصاء في أول عهده في لندن عام 1662. وقبل ذلك التاريخ، وجدت الاحتمالات العشوائية والتكرارات، ولكن أحدًا لم يكترث بها.

ثمَّ حكَّ السيد هنري بطنه بسبابة يده اليمنى.

كان السيد هنري يرتدي بنطالًا أسودَ لم يصل لمستوى حذائه.

وكان ينتعل حذاءً بنيًا. وحتى عند النظر إليه من الأسفل، لم يصل حذاؤه أبدًا لمستوى بنطاله.

إذن، كانت علاقة متبادلة؛ لم يصل بنطاله لمستوى حذائه ولم يصل حذاؤه لمستوى بنطاله.

قال السيد هنري وهو يتأمل أهمية الإحصاء الذي ابتكر في لندن عام 1662:

- يا للمصادفة العجيبة!

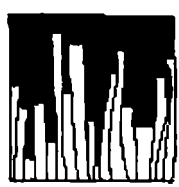

الفلاسفة

كان السيد هنري يجهد نفسه بحمل سلتي تسوق ثقيلتين مليئتين بالزجاجات.

توقف السيد هنري لبرهة قصيرة، منهكًا، وبدأ بالتفكير وهو يتوكأ على شجرة.

ثم قال:

- اخترع الإنسان السلال مع مطلع العصر الحجري.

لم يقل السيد هنري أي شيء بعد تلك الجملة لأنه كان متعبًا جدًا.

تابع السيد هنري لهاثه الناجم عن التعب وهو لا يزال متوكئًا على الشجرة.

قال وهو في حمأة لهاثه:

- أحتاج لكأس من الأفسنتين.

فكَّر أكثر ثم قال:

- أعرف الآن لماذا يبدأ المرء بالتفكير. التعب الجسدي هو السبب. لو كان كل الناس في حالة بدنية جيدة لما كان هنالك حاجة للفلاسفة.

أضاف قبل أن يتابع سيره:

- ولحسن الحظ، لدينا الأفسنتين. الأفسنتين أفضل محفِّز للعقل على الإطلاق. أحيانًا، لا أعرف فعلًا ما هو الشيء الذي يفكر بطريقة أفضل في رأسي: عقلي نفسه أم الأفسنتين. أغلب الظن أنه الأفسنتين.

العصر الحجري

طلب السيد هنري كأسًا إضافية من الأفسنتين وقال:

- أشعر اليوم بضعفٍ من طبيعة خاصة. لقد صنع البشر سلالًا في مطلع العصر الحجري، أجل، صنعوا سلالًا!

شرب السيد هنري كأس الأفسنتين برشفة واحدة وكرَّر ما قاله:

- سلالٌ في العصر الحجري! يا للعجب! في العصر الحجري!

في هذه الأثناء، قال أحدهم من الجانب الآخر من الحانة بسخرية:

- أنا مهتم فقط بالأشياء التي تهم حارتي.

أجاب السيد هنري:

- يا لك من شخص حكيم. ثم أضاف:

- كأس أخرى من الأفسنتين، لو سمحت.

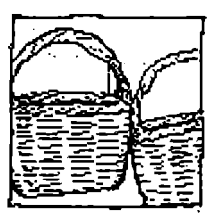

مقعد الحديقة

وقف السيد هنري في الحديقة أمام مقعده المفضل، حيث كانت تجلس إمرأة وهي تعزف الكمان.

قاطع السيد هنري عازفة الكمان قائلًا:

- كان أنطونيو ستراديفاريوس أشهر صانع كمان في كل العصور. يمكن القول بأنه المهندس المعماري للكمان. جرّب عدة أنواع من الكمنجات حتى قرر في نهاية المطاف حجم الكمان المعروف باسم كمان ستراديفاريوس وشكله. كان بإمكاني أن أكون عازف كمان عظيم، ولكني لا أعرف كيف أعزف عليه. على أي حال، اكتشف الإنسان الكحول بمدة لا بأس بها قبل اختراع الكمان. وحتى قبل وجود عازفي الكمان، وُجِدَ أناس ألهمهم الكحول إلهامًا فنيًا. وخلاصة الحديث، أرجوكِ أن تغادري هذا المقعد مع كمانكِ لأن هذا المقعد لي.

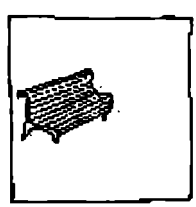

العقل

كان السيد هنري جالسًا على مقعد من مقاعد الحديقة متسائلًا إذا كان بإمكانه النهوض ليحتسي كأسًا من الأفسنتين.

- لقد طارت روحي من عقالها سلفًا.

نظر السيد هنري بعد ذلك إلى جسده، محاولًا أن يعثر على وجهه، ولكن لم يستطع إلى ذلك سبيلًا.

- هناك أعضاء من جسدي أستطيع أن أراها فقط بعيناي، وهناك أعضاء أخرى أستطيع أن أراها فقط بعقلي. يبدو الأمر وكأن لعقلي عيون أيضًا، وهما أقدَمُ عهدًا من عيناي الفعليتين.

ثم توقف السيد هنري عن الكلام.

فقال بعد برهة صمت قصيرة:

- ما هو أكيد أن عقلي قد احتسى مسبقًا كأسًا من الأفسنتين، أما أنا فلم أحتسِ أي كأس. في هذه اللحظة، عقلي سكران أكثر مني. حسنًا إذًا، سأذهب وأحتسي كأسًا من الأفسنتين.

نهض السيد هنري بغتة من مقعد الحديقة.

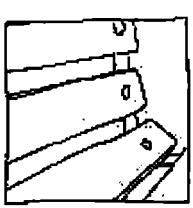

اتخذ قراره أخيرًا وصاح:

- قادمون يا أفسنتين!

وبدأ بالمشي مشيًا سريعًا جدًا.

المال

وجد السيد هنري خاتمًا مرميًا على ممشى الحديقة.

- يا للمفاجأة! ربما يكون خاتمًا من الذهب!

ثم وضع السيد هنري الخاتم في جيبه وفكّر في قرارة نفسه:

- الخاتم ليس ذهبًا، بل هو مصنوع من ستة آلاف كأس من الأفسنتين. الأفسنتين هو العملة المتداولة في عالمي.

ابتسم. لقد وجد فعلًا كنزًا نادرًا، ثم قال:

- هذا أول خاتم نبيذي سائل في التاريخ.

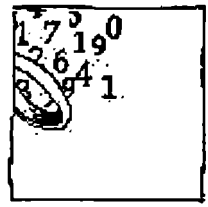

شروحات الأطباء

كان السيد هنري يشعر بانقطاع في النفَس مرتين في الأسبوع. كان ذلك يحصل له في بعض الأسابيع يومي الثلاثاء والسبت. وفي أسابيع أخرى يومي الثلاثاء والجمعة.

- «لا يوجد هواء هنا». كان السيد هنري يقول واضعًا يديه حول حنجرته.

أثناء قيامه بتقديم كأس الأفسنتين للسيد هنري، قال صاحب الحانة:

- لا شك بأن أحد أجدادك شُنِق منْ على شجرة عالية، طولها حوالي ستة أمتار وقطرها متر ونصف. حدثتْ تلك الحادثة الرهيبة ذات يوم ثلاثاء ولذلك فأنت تشعر بانقطاع في النفس يوم الثلاثاء.

أومأ السيد هنري برأسه موافقًا وقال:

- وأنا أيضًا لا تعجبني التفسيرات التي يقدمها الأطباء لحالتي.

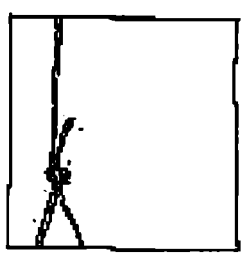

الكسوف

نظر السيد هنري إلى الكسوف الذي أُعْلِن أنه سيحدث ذلك اليوم ولم يكن قد بدأ بعد.

قال السيد هنري:

- إنْ حصل وتأخرتْ الأفلاك والنجوم، فما الذي يتوقعه المرء من كافة الموجودات الأخرى؟

كان السيد هنري قد أحضر معه منظارًا كبيرًا جدًا. قال:

- لو كان منظاري طويلًا بما فيه الكفاية ليشمل المسافة بين الأرض والشمس، عندها يمكنني أن أرى الأشياء أقرب بمسافة كبيرة. يوجد في اللغة الصينية كلمةٌ واحدةٌ تستخدم للدلالة على «الكسوف» و«الأكل». الكسوف شيء معتم يأكل نجمًا. يا لها من صورة بيانية رائعة!

في هذه الأثناء، أنزل السيد هنري منظاره وأخرج زجاجة من الأفسنتين من كيس يحمله على ظهره. قال بعد أن رشف بضع رشفات كبيرة:

- يا لجمال هذا الكسوف!

وتابع احتساء رشفات إضافية من الأفسنتين.

مستلقيًا على الأرض؛ منتظرًا شيئًا ما ليحصل في السماء،

انتهى الأمر بالسيد هنري مغمضًا عينيه ونام. عندما استيقظ، أمسك بكيسه وزجاجة الأفسنتين ومضى في طريقه.

حدَّث نفسه قائلًا، وقد بدا محلِّقًا من السعادة برؤية النجوم التي رآها في سمائه الخاصة أثناء الحلم:

- لدي كسوف خاص؛ كسوف لا يراه أحد سواي، ذلك الكسوف موجود هنا في هذه الزجاجة.

الزلازل

قال السيد هنري:

- لو رغبتم في حفر بئر، فمن الأفضل أن تجدوا أولًا قرية من قرى النمل. أعطني كأسًا أخرى من الأفسنتين. يعرف الجميع بأن هناك دائمًا كثير من الماء تحت قرى النمل. نتيجة لذلك فالنمل نباتات نصف ذكية ونصف غبية، في حين أن النباتات ذاتها ما هي سوى حيوانات دون أي ذكاء من أي نوع كان. يحتاج النمل الماء لتكوين أسرة. والنمل يشبه البشر في هذه الميزة. يوجد تحت سطح الأرض تموجات من الطاقة، وهي مماثلة للتموجات التي يمكن ملاحظتها في قرى النمل. أنا أقرأ الموسوعة كل يوم لكي أجمع هذه الشذرات الأساسية من المعلومات. لا يستطيع الإنسان العيش دون معلومات. لا بل إن ذلك مستحيل!

وتابع السيد هنري الذي بدأت كلماته تنزلق مع بعضها شيئًا فشيئًا:

- المعلومات هي الوجه الآخر للأفسنتين.

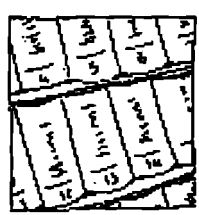

الشِّعْر

بعد أن احتسى برشفة واحدة كأسًا من الأفسنتين كان ممسكًا بها بيده اليمنى، قال السيد هنري:

- كأسٌ أخرى من الأفسنتين. كأس لكلا جانبي جسدي. كأس ليدي اليسرى.

وشرب محتويات الكأس الثانية وهو يمسك بها بيده اليسرى.

- الأفسنتين شيء أساسي لتوازن المرء. والرقم اثنان هو رقم متوازن، وكذلك مضاعفات الرقم اثنان. أعطني كأسًا أخرى، رجاءً أيها الساقي! فلنتقدم نحو مضاعفات الرقم اثنان!. في العصور القديمة كان هناك شكلان من الرياضيات وليس شكل واحد وحسب. حدث ذلك تمامًا كما يحدث دائمًا عندما تندلع حربٌ بين شعبين ويكسب طرفٌ المعركة ويخسرها الطرف الآخر. إذا كان أبناء الشعب (أ)، الذي انتصر، أشراراً، فإنهم يقطعون رؤوس كافة أبناء الشعب (ب)، ثم يختفي الشعب (ب) للأبد من وجه المعمورة. ذلك ما حصل مع أحد شكلَي الرياضيات. والسؤال هو ما إذا كان الشكل المهزوم من الرياضيات ربما كان أكثر ذكاءً من

الشكل المنتصر الذي بقي إلى أيامنا هذه. يحدث أيضًا في الأعم الأغلب أن يكون المهزومون أكثر ذكاءً. فالمرء يعرف بالتأكيد بأن المهزومين أشد ضعفًا، وتلك حقيقة واقعة، وهذا بالضبط السبب وراء هزيمتنا نحن. ولكن تخيلوا بأن الشعب الذي لديه الرياضيات (أ)، أي تلك الرياضيات التي تعقد حياتنا الآن... تخيلوا بأن الشعب الذي لديه الرياضيات (أ) استخدم رماحًا أطول من الشعب الذي درس الرياضيات (ب). ونتيجة لذلك، في الوقت الذي كانت فيه رؤوس رماح الشعب الذي لديه الرياضيات (أ) تخترق صدور الشعب الذي لديه الرياضيات (ب) مسبقًا، فإن الرياضيات (أ) فُرضت فرضًا على كافة شعوب العالم. ولذا، ألا يمكن للمرء أن يؤكد بأن الرياضيات التي نستخدمها في يومنا هذا قد انتصرت في الحرب بالشدة والبأس وتفوق السلاح؟ أظن بأن الشكل الثاني من الرياضيات، الذي اندثر في ضباب الزمن، أدى لنشأة الشِّعر بعدة طرقٍ يصعب فهمها. بكل الأحوال، ذلك ليس يقينًا مطلقًا. ما ذلك سوى حسابات شعرية. أعطني كأسًا أخرى من الأفسنتين، وتأكد من تقديمها بسرعة كبيرة.

سأل السيد هنري الذي بدا من الواضح أنه كان قد دخل في حالة من عدم التوازن:

– أتودون أن أحكي لكم عن السنوات الرهيبة التي امتدت بين عامي 1348 و1350؟ دعونا إذًا نباشر بشرب الكأس الرابعة، فالرقم أربعة هو المضاعف الأول للرقم اثنان.

التشريح

قال السيد هنري:

- اخترَع المقصلةَ أستاذ جراحة وعالم تشريح مرموق اسمه د. جوزيف-إغناياس غيوتين[2]. ورأى د. غيوتين بأن المقصلة أسرع بكثير من الفأس في قطع الرؤوس وبالتالي فهي تسبب معاناة أقل. فإذا ما لجأنا لاستخدام الفأس مع المجرمين من ذوي الرقاب الغليظة، فإن الأمر قد يتطلب عشرين دقيقة لفصل رؤوسهم عن أجسادهم. من الضروري دراسة الجسم البشري دراسة متأنية ومتمعنة لكي نكون قادرين على قتل الناس بسرعة. تحتاج بعض أدوات القتل الرعناء، كالزمن بجلاله وقدره، لسبعين سنة لقتل شخص ما. ولكن الأمر يتطلب مقدارًا عظيمًا من العلم والمعرفة للقدرة على قتل إنسان في أجزاء ضئيلة من الثانية. يجب على المرء إذن أن يستنتج بأن الزمن بجلاله وقدره غير متخصص في تشريح جسم الإنسان. دعونا نفكر بالأمر؛ تخيلوا صخرةً عملاقةً تنهار انهيارًا عنيفًا على جمجمة أحدهم... ولكن هناك أطباء في أماكن لا يتوقع المرء وجودهم فيها؛ تلك هي المسألة.

---

(2) جوزيف-إغناياس غيوتين (1738 - 1814): سياسي وطبيب فرنسي اقترح سنة 1789 ،أي عشيّة الثورة الفرنسية، استخدام المقصلة في عمليات الإعدام للتخفيف من عذاب الضحايا. ومنه أخذت المقصلة اسمها في الفرنسية والإنكليزية (guillotine). (المترجم)

سوء الطالع

قال السيد هنري:

- اللعنات حسابات رياضياتية تحدث في المستقبل وتنتظرنا فيه.

انحنى السيد هنري ليثبت رباط حذائه في اللحظة ذاتها بالضبط التي اخترق فيها حجر ضخم الهواء مصدرًا أزيزًا قرب رأسه ليتحطم بعدها حال اصطدامه بالأرض.

قال السيد هنري بعد أن نهض:

- مرة أخرى، يأتي حسن طالعي في الوقت المناسب. أو، لأقل بعبارة أخرى: حسن طالعي يتزامن دائمًا مع سوء طالعي. لو قدِّر للحجر أن يهشم رأسي، لكان ذلك سوء طالع. ولكن لحسن الحظ، كنت محظوظًا بما فيه الكفاية لأنحني في اللحظة المناسبة التي كان فيها الحجر موشكًا على ضرب رأسي. الأشخاص الذين يصاحبهم سوء الطالع لا ينفكون عن ملازمة حسن الطالع لهم أيضًا. المسألة فقط هي أن حسن الطالع يأتيهم في غير أوانه. إن الأمر يشبه أن يعثر المرء على كيس ممتلئ بالرمل وسط الصحراء.

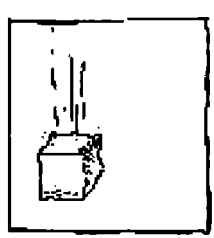

اللانهاية

طلب السيد هنري كأسًا من الأفسنتين ثم قال:

- لم أشرب قطرةً واحدةً منذ يومين. كنت منهمكًا بقياس أبعاد مبنى قديم، وإذا شربتُ أثناء ذلك فإن القياسات الداخلية للمنزل ستتحول إلى ضعف قياساته الخارجية. أيمكنُ أن يكون هناك منزلٌ له جدار طوله عشرة أمتار من الداخل وخمسة أمتار فقط من الخارج؟ إن فكرتي عن اللانهاية هي كما يلي: اللانهاية تتمثل بصندوق أبعاده الداخلية (10x10x20) وأبعاده الخارجية (5x5x10).

قال السيد هنري:

- الأفسنتين يحتوي اللانهاية.

ثم رفع سبابته وأضاف:

- كأسًا أخرى من اللانهاية رجاءً؛ ولتكن كأسًا كبيرة هذه المرة!

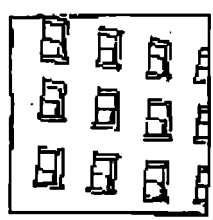

التأثيرات السعيدة

قال السيد هنري:

- منذ آلاف السنين، بنى الصينيون برجًا للتأثيرات السعيدة. قرأتُ عن ذلك في الموسوعة. كان برجًا مرتفعًا ارتفاعًا شاهقًا شُيِّد لطلب مساعدة النجوم من كثب؛ مساعدة النجوم لنا نحن البشر هنا على الأرض. إذا طلبتَ العون من الشمس وقدمُكَ تدوس الأرض، فلا يمكن للشمس أن تسمع نداءك. فالسماوات تسمع العمالقة أكثر من سماعها للأقزام. المسألة تتعلق بالرياضيات. لذلك، عندما تحدوك الرغبة في مخاطبة السماوات، اصعد إلى قمة برجٍ واصرخ بأعلى صوتك. بيد أن المشكلة العويصة هنا التي يواجهها البُكْم ممن لا يستطيعون الكلام هي بلا أدنى شك عدم وجود صوت لديهم ليتكلموا.

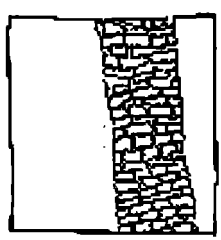

نقص في الشروط الصحية السليمة

قال السيد هنري:

- ظن السلتيون[3] بأنَّك إذا تسبَّبت في إصابة إنسان بالصمَم، فإنه سيصبح عبدًا لك إلى الأبد لأنه لا يستطيع أن يتعلم أي شيء من أحد سواك. وعلى أي حال، حصل ذلك في عصر لم تكن الكتابة قد اخترعت فيه بعد؛ ولا السينما. وفي يومنا هذا من الضروري أن تجعل إنسانًا ما أصمًا وأعمى، وأن تقطع يديه وقدميه إذا ما أردته أن يكون عبدًا لك. ولذلك يحدث في أيامنا هذه أن أحدًا ما يمتص المعلومات من كافة جهات جسده. ويُعدُّ ذلك، من وجهة نظري نقص صارخ في الشروط الصحية السليمة.

(3) السلتيون شعوب هندو-أوروبية عاشت في عصر الحديد والعصور الوسطى في أوروبا، وكانوا يتحدثون اللغة السلتية. (المترجم)

الأبجدية

قال السيد هنري:

- يبدو أن أحدهم أُدين في السنوات الأولى للمسيحية بتهمة كتابته لعبارة «دخلتْ الكلمة عبر أذن مريم العذراء».

طلب السيد هنري كأسًا أخرى من الأفسنتين.

- أعرف أيضًا قصصًا من الطاوية والبوذية والهندوسية. صحيح أنني لم أكن أبدًا شخصًا متدينًا. ولكن لو كانت الكنيسة كأسًا عملاقة؛ كأسًا ممتلئة بالأفسنتين، فإنها لن تكون كأسًا مليئةً بالنسبة لي. ولكن يجب على المرء ألَّا يتكلم بسوء عن الدين أثناء الشرب.

ثم أضاف:

- هل تعلمون بأن البابليين استخدموا كلمة واحدة تدل على الألم والأكل؟ تجدون تلك المعلومة في المجلد الثاني من الموسوعة في الصفحة رقم 376. فعلى سبيل المثال، بدلًا من أن يقولوا بأن أقدامهم قد أصيبت بسوء كانوا يقولون بأن أقدامهم أكلَتْ أجسامَهم. كما أعرف أيضًا أشياء عن عِلمَي الفلك والخيمياء. تعلمتُ أشياء عن الخيمياء قبل الفلك، لأن الخيمياء

تأتي قبل الفلك في الترتيب الأبجدي. بالنسبة لي، إن حقيقة أن حرف الخاء في كلمة خيميائي يسبق حرف الفاء في كلمة فلَك أكثر أهمية من أي نظام تاريخي.

قوس قزح

قال السيد هنري:

- أُخترع أول قوس قزح سنة 1656؛ أنا أمزح بالطبع. إن الاختلاف بين الأحداث الطبيعية والأحداث البشرية يكمن في أنَّ الأحداث الطبيعية ليس لها تاريخ ابتُكِرتْ فيه. وهي دائمًا أقدم بمدة زمنية طويلة جدًا من الأحداث البشرية.

ثم قال:

- إليَّ بكأسٍ من الأفسنتين، رجاءً. هناك من يظن بوجود أقواس قزح ليلية، ولا نستطيع أن نراها لأننا عميان. كما أنني لا أفهم أبدًا ما المقصود بالتقدم. فنحن نشرب كأس الأفسنتين بذات الطريقة تمامًا التي كان يشربها بها سكان روما القدماء. ولا يزال البعض يتحدثون عن التقدم. انظروا! يا للخمرة الممتازة! وُجِد الأفسنتين قبل أن يوجد الذكاء. وهو الآن حقيقة من حقائق التاريخ النادرة التي لا جدال فيها.

الأشياء الخالدة

قال السيد هنري:

- لقد تشرَّفتْ هذه الحانة الكريمة التي نحن فيها بأنها كانت المنبر الذي أَلقى منه السيد هنري أشهر خطاباته، نعم السيد هنري، أنا؛ العبد الفقير الواقف أمامكم في هذه اللحظة بالذات. إليَّ بكأس أخرى من الأفسنتين، رجاءً. سأحدِّثكم اليوم، على سبيل المثال، عن المِجْهَر. المِجْهَر أداةٌ اخترعت لجعل الأجسام الصغيرة تبدو أكبر، في حين أن السياسيين أدواتٌ اخترعت لجعل الأجسام الكبيرة تبدو أصغر. اختُرِع المِجْهَر في هولندا عام 1590. برأيي المتواضع، ينبغي أن يكون هناك تاريخٌ يؤرِّخ لاختراع أداة ما وتاريخٌ يؤرِّخ لعدم اختراع الأداة نفسها. عندما تتفوق أحداث أخرى على اختراع ما، يجب أن تجري مراسم الدفن له، بكل ما فيها من طقوس الوداع المهيب. الأمر شبيه لما يحصل مع بني الإنسان؛ فلكل واحد منهم تاريخ ميلاد وتاريخ وفاة. رحمة الله عليكم يا بني الإنسان! ومع ذلك يوجد بعض الأشياء الخالدة، بالطبع. أشياء لا تموت أبدًا. أشياء لا تفقد قيمتها أبد الدهر.

- كأس أخرى من الأفسنتين رجاءً، يا سيدي العزيز.

وبينما كان يتذوق كأس خمره، أضاف السيد هنري:

- عن ماذا كنا نتحدث؟ نعم! عن الأشياء الخالدة!

المحرك الثنائي الأشواط

قال السيد هنري:

- لن ألمس حتى ولو كأس واحدة من الأفسنتين في هذا اليوم. ولذلك، أيمكنني أن أسأل إنْ كان بينكم رجل كريم يصبُّ لي الأفسنتين في حلقي؟ أنا أمزح، إذ يكمن نصف متعة شرب الأفسنتين في الإمساك بالكأس. حسنًا، ربما يكون النصف نسبة مبالغ فيها. أريد كأسًا من الأفسنتين ممتلئًا حتى حافته، أريد ذلك الآن. عندما أتوقف عن القدوم إلى هذه الحانة ستشتاقونني يا سادتي الأعزَّاء. أنا واحدٌ من أكبر ممولي هذه الحانة المحترمة.

تابع السيد هنري قائلًا:

- من هم الملوك؟ الملك هو الشخص الذي ما إنْ نضعه على شريحة مجْهَرية إلا ونراه بصورة مجموعة من الديدان بثلاثين لونًا مختلفًا ليس إلا. المجهر هو أعظم ابتكار من ابتكارات الديمقراطية. عندما ننظر إلى إنسان فقير في المجهر فسنرى له نفس العدد من الديدان والألوان التي للمِلك. لولا المجهر، لما كانت الديمقراطية. أنشأ الإغريق تقريبًا ديمقراطية بلا مجهر، وقد سبَّبتْ، في واقع الأمر، خرابًا عظيمًا.

تابع السيد هنري:

- لقد اكتشفتُ أيضًا شيئًا عن محرِّكات الاحتراق الداخلي. هناك محركات ثنائية الأشواط وأخرى رباعية الأشواط. الأمر شبيه تمامًا برقصة الفالس، باستثناء أنه في حالة المحركات فإن الحرارة لا تطاق بطريقة ما، في حين يمكن تحمل الحرارة الناتجة عن رقصة الفالس بطريقة أخرى مختلفة تمامًا.

ثم قال:

- إن الشيء الوحيد الذي لا يوجد في النماذج الثنائية الأشواط هو الموت. لو كان الموت عملية ثنائية الأشواط، لما مات أحد لأن الجميع سيهربون في الفاصل الزمني بين الشوطين الأول والثاني. الموت محرِّك أحادي الشوط. الموت محرِّكٌ يطرق طرقة واحدة على الرأس، طرقة لا تكون سوى ضربة قاضية. إليَّ بكأس أخرى من الأفسنتين يا سيدي العزيز. يجب احتساء كؤوس الأفسنتين أيضًا بضربة واحدة. إنه لإثمٌ عظيم أن يحتسي المرء كأسًا من الأفسنتين على مرحلتين. ولهذا أرغب في أن أعلن في قلب هذه الحانة الفاخرة للنبيذ والخمور (التي حري بنا أن نسميها مؤسسة النبيذ والخمور المحدودة المسؤولية) بأن الوصية الحادية عشرة التي أضيفها للوصايا العشر هي كما هو آت: لا ينبغي لكم أن

تشربوا كأسًا من الأفسنتين على مرحلتين. أما الوصية الثانية عشرة فهي كما هو آت: وحتى لا يجوز شربها على ثلاث مراحل. يجب أن تشرب كأس الأفسنيتن برشفة واحدة وإلا فلا تُشْرَب أبدًا. عندما يشرب المرء يجب عليه ألا يتأتئ، أرأيتم أحدًا يتأتئ أثناء الغناء والشرب؟ كأس أخرى من الأفسنتين يا أصحاب السعادة، فالسيد هنري على وشك أن يشرب في صحتكم. جلُّ المسألة هي أن السيد هنري شخص ذكي جدًا. فكل مساحة مهما كانت صغيرة من رأس السيد هنري تفيض بطوفان من الذكاء. لدى السيد هنري مساحات شاسعة من الذكاء داخل رأسه تمتد لكيلومترات لا تعدُّ ولا تحصى. رأيتُ سابقًا صورًا تدل على تراكم ذكائه داخل جمجمته وكأنه أفعى كوبرا تفيض منها الحكمة.

أردف السيد هنري قائلًا:

- إن مسألة المحرك الثنائي الأشواط تتجلى في أن كل شيء مهم لا يوجد في صيغة ذات شوطين ولكن في نسخة ذات شوط واحد. إذْ لا يوجد هناك إلهان، إله إلى اليمين وإله إلى اليسار. ولم يحدث طوفانان عظيمان: طوفان في الساعة السادسة والربع وطوفان آخر في السابعة وخمسة وثلاثين دقيقة. إن حقيقة وجود طوفانين ستجعل من مصطلح الطوفان العظيم أمرًا مثيرًا للسخرية.

كل الكلمات المهمة كلماتٌ ذات شوط واحد. لنأخذ على سبيل المثال كلمة «أفسنتين»؛ إذْ لا أحد يلفظها أفـ - سنتين. وإن لفظَها أحدٌ على تلك الشاكلة، فهو يرتكب إثمًا بحق أقدس المقدَّسات.

صمتَ السيد هنري لبرهة ثم أضاف:

- لقد أصابني هذا الخطاب المُسْهَب بالتعب. أيمكن أن يكون صاحب هذه الحانة لطيفًا ويتفضل بأن يحضر لي كأسًا أخرى من الأفسنتين؟ وليس كأسًا من الأفـ - سنتين. اسمها الأفسنتين وسيبقى اسمها دومًا كذلك.

وختم السيد هنري حديثة قائلًا:

- المحرِّك الثنائي الأشواط خاص بالحمقى.

الواقع

قال السيد هنري:

- إذا خلطنا الأفسنتين بالواقع فإن النتيجة ستكون الحصول على واقع أفضل حالًا. صدِّقوني، أيها المستمعون الأكارم، عندما أقول ذلك فأنا لا أتحدَّث من باب المعرفة العلمية، التي أمتلك منها الكثير بلا أدنى شك؛ ولكن المسألة ليست كذلك، أنا أتكلم بصوت الخبرة، يا أبناء بلدي الأعـزاء! صحيح أنه إذا خلطنا الأفسنتين بالواقع فإن النتيجة تكون الحصول على واقع أفضل حالًا، ولكنه صحيح أيضًا أنه إذا خلطنا الأفسنتين بالواقع فإن النتيجة ستكون الحصول على أفسنتين رديء.

وتابع السيد هنري قائلًا:

- قمتُ باختيار الخيارات الأساسية التي يجب على المرء القيام بها في حياته منذ زمن بعيد. أنا لا أخلط الأفسنتين بالواقع لكي لا ألوِّث جودة الأفسنتين. أعطني كأسًا أخرى من الأفسنتين يا سيدي العزيز، ودون أن يكون فيها حتى ولو قطرة من الواقع لو سمحت.

الذكاء

قال السيد هنري:

– ما لا أحبه في جيوب البنطلونات أو القمصان هو أنها غير مهيَّأة لحمل السوائل. لو كانت الملابس مهيأة بطريقة مُثلى لحمل السوائل بدلًا من الذهب لغدا العالم مكانًا أفضل بكثير. يا سادتي الأعزاء! أرجوكم رجاءً خالصًا أن تبدوا رأيكم بكل إسهاب بإزاء ما يحدِّثكم به السيد هنري، لأنه شخص ذكي جدًا. وفي حين أن ذكاء غالبية الناس يتركز في الجزء العلوي من أجسادهم، يتركز ذكائي في الجزئين العلوي والسفلي معًا؛ أنا ذكي على جميع الجبهات وفي كافة الاتجاهات.

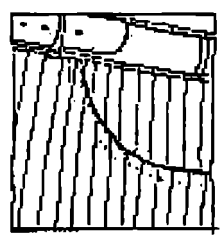

الجزء العلوي لكأس الأفسنتين

قال السيد هنري:

- عندما كنتُ في طريقي إلى هنا رأيتُ ممرضةً تجلس في الحديقة وهي تسقي ثلاثة أطفال ماءً كما تسقي النباتات. بدا الأطفال والسعادة تغمرهم غمرًا. إليَّ بكأسٍ من الأفسنتين، يا سيدي العزيز! إذا سقتْ امرأة النباتات فإنها تصبح نباتات أكثر أنوثة، أما إذا سقاها رجل فإنها تزداد قبحًا. لا بل إني رأيت أشياء أكثر غرابة من ذلك. كأس أخرى من الأفسنتين، يا سيدي العزيز! لأنَّك قدمتَ لي الكأس الأخيرة في عجلة من أمرك.

تابع السيد هنري حديثه:

- أثبتت الدراسات بأن الذكاء يوجد بشكل رئيس في الجزء العلوي من كأس الأفسنتين. وهذا هو السبب الذي يجعلني أشرب من أعلى الكأس. في الحقيقة، ما فتِئَتْ حقيقة استحالة شرب السوائل من أسفل الكأس تسحرني. ولكن ذلك السر العجيب ليس السر الوحيد المدهش في هذا العالم.

العَقْد

قال السيد هنري:

- لم يعتد والداي على قراءة قصص الأطفال لي قبل النوم. بل اعتادا على قراءة عقود الاستئجار وغيرها من الأشياء حتى أنام. فقد كان أبي يعمل في مكتب الكاتب بالعدل. كان في المكتب كاتبٌ بالعدل وثلاثة رجال لم يكترث بهم أحد قط. أبي كان أحد الرجال الثلاثة. لم يكن لدى أبي أي وقت يمضيه معي كما لم يكن لديه الوقت أبدًا لإعادة قراءة العقود التي كان يصيغها على مضض. صرف أبي معظم اللحظات القليلة التي كان يقضيها معي قبل أن أخلد للنوم وهو يقرأ لي العقود بصوت عالٍ حتى يتسنى له التحقق من وجود أي أغلاط فيها. ونشأتُ وترعرعتُ وأنا أظن بأن قصص الأطفال كانت تحتوي دائمًا طرفين: الطرف الأيمن والطرف الأيسر؛ وهما الطرفان المتفقان على شروط العقد، وأن أحد الطرفين يمنح الطرف الآخر شيئًا ما مقابل شيء ما آخر. عرفتُ فيما بعد فقط بأن تلك التفاصيل تحصل فعليًا في الحياة الحقيقة -أعني الأخذ والعطاء- وأنه يحدث فقط في قصص الأطفال أنَّ الأشياء تعطى دون الرغبة في الحصول على أي شيء مقابلها. استدعاني أبي قبل وفاته وقال لي: «لا تقدِم على فعل أي

شيء أبدًا دون أن تصيغ له عقدًا كخطوة أولى». كانت تلك آخر كلماته. كان رجلًا حكيمًا.

وأردف السيد هنري قائلًا:

- إليَّ بكأس أخرى من الأفسنتين! يا عزيزي الطرف الثاني الموافق على شروط العقد وأحكامه. شكرًا جزيلًا لك.

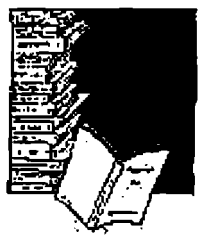

النظرية

قال السيد هنري:

- اخترع الهاتف ليتسنى للناس التحدث مع بعضهم من مسافات بعيدة. اخترع الهاتف ليبعد الناس عن بعضهم البعض، وشأنه في ذلك شأن الطائرات. اخترعت الطائرات بحيث يستطيع الناس العيش بعيدين عن بعضهم. لو لم توجد الهواتف والطائرات لعاش الناس معًا.

وتابع قائلًا:

- هذه مجرد نظرية، ولكن فكروا بها، يا أصدقائي. ما يحتاج المرء القيام به هو أن يفكر في اللحظة المناسبة التي لا يتوقعها الناس. تلك هي الطريقة التي تفاجؤونهم بها.

شؤون فيزيولوجية

قال السيد هنري:

- صُنع أول بيانو في العالم في إيطاليا في مطلع القرن الثامن عشر. واعتبارًا من سنة 1880 وما بعد، تطوَّرت آلات البيانو بشكل أساسي على مستوى القدرات الهيكلية والنغمات وكذلك من ناحية سرعة الجر.

احتسى السيد هنري كأسًا من الأفسنتين برشفة واحدة ثم تجشأ تجشؤًا هادرًا بعد ذلك مباشرة وتابع حديثه:

- يحتاج المرء مقدارًا كبيرًا من الحساسية لكي يعزف البيانو. التجشؤ هو لغة أجدادي الأوائل، وأستميحكم عذرًا لكوني مرتبط كل ذلك الارتباط بجذور عائلتي؛ أعتذر لأني أزعجتكم بصوت تجشؤي يا سادتي الأعزاء. إن فائدة الخمر تكمن في أنه يثيرك من الداخل. ما الخمر إلَّا ثائرٌ فوضوي داخلي حقيقي. وهو أبلغُ أثرًا من الأفكار الثورية. التفكير لا يثيرنا داخليًا كما تثيرنا كأس من الأفسنتين، وينبغي لكل المثقفين أن يتأملوا هذه الحقيقة تأملًا جديًا. أنا لستُ مثقفًا، ولكن بإمكاني أن أكون منهم. لو أني، في كل مرة أشرب فيها كأسًا من الأفسنتين في هذه المكتبة[4] العامرة،

(4) يقصد الحانة بالطبع. (المترجم)

قرأتُ كتابًا في مكتبة من نوع آخر، لكنتُ مطلعًا على التاريخ الكامل للقوط الغربيين ولحفظت تاريخهم غيبًا. ولن يكون لدي الوقت الذي أحتاجه لدراسة تاريخ القوط الشرقيين. بالمناسبة، لا يوجد شعب اسمه القوط الشرقيون. إن أفضل شيء يمكن القيام به هو جمع كل تلك الحقائق والأحداث في كتاب واحد، ومن ثم تقليص حجم الكتاب إلى نصف حجمه الأصلي، وهلُّم جرًّا، حتى يتمكن المرء من اختصار كل المعرفة الموجودة في هذا العالم في جملة واحدة من عشر كلمات. ثم نتعلم جميعًا تلك الجملة المختصرة، وسيكون لدينا الوقت لنمتِّع أنفسنا متعة جدية بشرب كؤوس الأفسنتين، كأسًا إثر أخرى، كما أوصت الآلهة بذلك. في أثناء ذلك، ومنذ مرور بعض الوقت، لم أكن قادرًا على التركيز تركيزًا نابعًا من صميم قلبي على كؤوس الأفسنتين بناءً على احتياجاتي الفكرية. فلدي عدة حاجات فكرية بنفس عدد حاجاتي الفيزيولوجية تقريبًا. لو قدِّر لي أن أحتفظ بسجل عن ذلك، في هذه الحوجلة السفلى هاهنا، يحتوي على عدد المرات التي يجب فيها أن أتبول تبولًا اضطراريًا، وبعدد المرات التي أشعر فيها بالحاجة لمعرفة الحقائق الموجودة في الحوجلة العلوية هناك، فإن العدد الإجمالي للمرات في الحوجلة العلوية سيكون أكبر من دون أدنى شك في ذلك من عدد المرات في الحوجلة

السفلية. يحصل كل ذلك مع التنبه إلى أن الأفستين يميل ميلًا كبيرًا نحو الحالة السائلة. قد يبدو الأمر غريبًا بالنسبة لكم، في نهاية العام يظهر عندي عجز واضح في الحوجلة السفلية. ومع ميل كبير نحو القضايا الفكرية أكثر من القضايا الفيزيولوجية، لا مناص من القول أنني في الواقع أستطيع أن أحشر نفسي في صنف جماعة المفكِّرين. فلدي من الذكاء أكثر مما لدي من الصفات الفيزيولوجية، يا أصدقائي الأعزاء. يحتاج المرء فقط أن ينظر إلى وجوهكم لوهلة ليستوعب بأن الحالة ذاتها لا تنطبق عليكم جميعًا. آمل ألا أكون قد وجَّهتُ لكم أي إهانة، ولكن الحقيقة تقول بأن وجوهكم، يا أصدقائي الأعزاء، هي وجوه فيزيولوجية محضة. وجوهكم وجوه فيزيولوجية ذات أُنُوف، تلك هي حقيقة وجوهكم. بينما وجهي، إذا ما نظرتم إليه من كثب، هو قليل من الفيزيولوجيا مع جزء صغير من أنفي، صحيح، ولكن، ما هو أهم وأبلغ من ذلك هو أن وجهي عبارة عن محرِّك يعج بالذكاء، وجهُ حيوان عميق الأفكار، وجهٌ صنَعتْه الفلسفة. ومثال ذلك السؤال التالي: أتعرفون متى أُنشئت أول حاملة طائرات في العالم؟ لا تعرفون؟ المسألة تتعلق بالفيزيولوجيا فقط. أيها السادة الأعزاء! تفوح منكم رائحة الفيزيولوجيا، وذلك أمر نادر الحدوث. أنشئت أول حاملة طائرات في العالم عام 1918، ألف وتسعمائة وثمانية

عشر. دوِّنوا هذه المعلومة ولا تنسوها أبدًا. ستشعرون بغياب السيد هنري عندما يكف عن الجلوس معكم في هذا المكان، ذلك صحيح.

ثم قال:

- فليشرب الجميع أفسنتين؛ وعلى حسابي. فأنا أشعر اليوم تحديدًا بالسعادة.

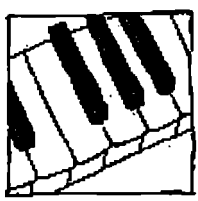

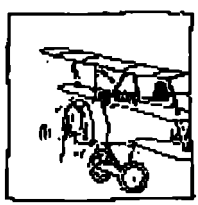

الأناقة

قال السيد هنري:

- اخترعت عربة العمل اليدوية لمنح الرجال القوة، في حين خُلِقَتْ النساء لامتصاص قوة الرجال. أعرف أنني شخص أخرق؛ وللتعويض عن ذلك سأشتري خمرًا لكل النساء الحاضرات في هذا الضريح الهائل المحتفي بأشجار الكرمة.

ثم تابع قائلًا:

- يا سيدي! يا سيدي العزيز! بل يا سيدي الرائع! كيف من الممكن أن يوجد صرحٌ كهذا الذي نجلس فيه، بكل ما فيه من مستوى الجدران والعفونة؛ وما ينطوي عليه من احتمالية الإصابة بالأمراض، ناهيك عن نظام الصرف الصحي السيء، والرطوبة المستولية على المكان استيلاءً رهيبًا وانتهاءً بالرائحة العفنة المقززة النتنة؟ سأسألكم باختصار: كيف من الممكن أن لا توجد حتى امرأة جميلة واحدة يمكن العثور عليها في هذا المكان للتعويض عن كل تلك الخيبات التي يحويها؟ ربما يبدو ذلك خطأ معماريًا فادحًا، خطأ ألا نرى أي امرأة في هذا الصرح، ومع ذلك، لا يمكن توجيه أصابع اللوم للمهندسين المعماريين

وتحميلهم مسؤولية كل القصور في هذا العالم. الحقيقة أن عربة اليد اخترعت لإعطاء الرجال القوة، في حين خُلِقَتْ النساء لامتصاص قوة الرجال، ولذلك يشعر المرء بغياب النساء لأنهن، ومع كل شيء، الوجه الآخر للمنفعة. فإن قدِّر لك أن تجد المنفعة على أحد وجهي العملة النقدية فإنك ستجد بالتأكيد امرأة على وجهها الآخر. النساء هن أقل الأدوات فائدة من بين كل الأدوات التي يستخدمها الرجال لأنهن كائنات جميلة.

ثم استطرد قائلًا:

- ولكن يا أصحاب السعادة، في اليوم الذي تطأ فيه قدم امرأة واحدة صالونكم هذا لكي تقوم بزيارتكم زيارة في غاية الروعة، فإنني، أنا، نعم، أنا، الرجل المجبول من طينة طيِّبة، السيد هنري، بدوره، لن يفعل ذلك؛ أقصد، أنني بدوري، لن تطأ قدمي مرة أخرى أبدًا هذه القاعة الكريمة وتتجاوز عتبة بابها لأزوركم زيارات في غاية الروعة! ذلك أن النساء يجلبن حظًا أتعس مما تجلبه زجاجة خاوية مرمية في سقيفة البيت. هذه وجهة نظري. وأستميحكم عذرًا إن كان في ما قلته إهانة لأي واحد فيكم. إن سبب ذلك يعود إلى أن النساء مخلوقات أنيقة والأناقة هي آخر المزايا التي يحق لها الدخول إلى هذه القاعات الجوفاء في هذا الصرح. لكل

حانة غموضها؛ ولكل حانة روحها؛ وروح هذه الحانة تتجلى في عدم السماح للأناقة أن يكون لها موضع قدم هنا البتة، ولطالما آمنتُ بذلك في كل وقتٍ وحين. إليَّ بكأس أخرى من الأفسنتين، يا سيدي العزيز، نظرًا لأني أسهبتُ في خطابي هذه المرة. حلقي أشدُّ جفافًا من الصحراء في المدة التي يضربها الحر بين الظهر والعصر. أشكرك جزيلًا، يا سيدي العزيز، هذا ما سيعيدني فورًا لأرض الأحياء. ها أنا خارج الآن.

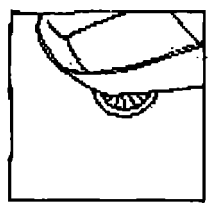

العظام

قال السيد هنري:

- لا بد من شحذ السكاكين الفولاذية شحذًا دوريًا لتخليصها مما يعلق بها من صدأ. قد تبدو هذه المعلومة غير مهمة لمن ليس لديهم سكاكين فولاذية، ولكنها معلومة في غاية الأهمية لمن يملكونها. إليَّ بكأس من الأفسنتين، يا صاحب السعادة!

تابع قائلًا:

- يقولون بأنه من غير المعروف بالتأكيد إذا كان أرخميدس نفسه هو من اخترع رافعة أرخميدس. لطالما ظننت بأن الشيء الأهم هو معرفة كيفية استخدامها. ولكن إنْ لم يكن أرخميدس هو من اخترعها، فهناك حاجة لتغيير اسمها على الفور. لا نريد أن يمضي قرن آخر من الزمان مع أخطاء من هذا القبيل. كأس أخرى من الأفسنتين، أناشدكم مناشدة هذه المرة.

تابع حديثه قائلًا:

- عظامنا مُلْكٌ لنا، مثلها مثل المنزل الذي نشتريه. والاختلاف الوحيد بينهما أنه عندما لا نسدد المبالغ المستحقة علينا للبنك،

فليس من السهل انتزاع عظامنا منا كما يسهل عليهم انتزاع بيوتنا. الهيكل العظمي هو أكثر المقتنيات الخاصة ارتباطًا بمالكها. كلَّما شربت كأسًا من الأفسنتين أرى نفسي كبستاني يروي حديقته بالماء. عظامي تتوق للمشروب كتوق الحديقة للماء في صيف قائظ. إليَّ بكأس أخرى من الأفسنتين، يا سيدي العزيز.

ثم تابع:

- الأفسنتين يجعل عظامنا صلبة، قوية، ذكية، رشيقة، مرنة، مديدة البقاء، متأهبة، وإضافة إلى ذلك، الأفسنتين مفيد لعظامنا. إنها لحقيقةٌ أنَّ العظام لا تسْكر، لأن السُكر شيء يصيب سطح الجسد. يمكن للمرء أن يشرب عشرة كؤوس من الأفسنتين دون أن يترنح الهيكل العظمي حتى ولو قيد أنملة؛ الشيء الذي يهتز ما هو إلا الأعصاب المحيطة بالعظام. فهناك أكثر من مائة ألف عصب لكل عظمة أو ما يقارب ذلك الرقم. لقد قرأتُ رسالة في التشريح تتناول قضية نسيان أعضاء لأحد الأشخاص. قرأتُ رسالة في التشريح حيث نسي المؤلفون أن يتحدثوا فيها عن الساقين وإحدى الذراعين. تحدَّثوا عن الجسد من الرأس حتى الرجلين ولكنهم نسوا أن يتحدثوا عن بعض الأعضاء. إن رسالة في التشريح تتناول بعض أعضاء الجسد وتغفل أعضاء أخرى

تشبه ملخَّصًا للكتاب المقدَّس على ثلاث صفحات من الورق مع خمسة وعشرين رسمًا توضيحيًا. إن الأفسنتين بالنسبة لي هو...

تابع قائلًا:

- يا سادتي الأعزاء! لكي يتسنى لكم فهم ما أقول هلَّا تخيلتم معي هذه الصورة؛ يا سادتي الأعزاء. الأفسنتين بالنسبة لي يشبه كتابًا في التشريح لا يغيب عن صفحاته أي عضو من أعضاء الجسد. هو كائن محمي من عاليه وسافله ومن كل جهاته الأخرى أيضًا. لذلك أقول: عاش الملك! عاشت العظام! عاش الأفسنتين! ويبدو ذلك ملخصًا جيدًا بالنسبة لي.

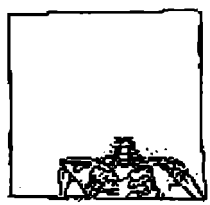

العطسة

قال السيد هنري:

- يغسل الذباب يديه في حركة سرمدية مثل بيلاطس البنطي. هل تعرفون يا سادتي الأعزاء من هو بيلاطس البنطي هذا؟ بيلاطس البنطي هو الرجل الذي اعتاد على غسل يديه كذبابة. لا تجزعوا! أنا أمزح فقط.

تابع قائلًا:

- هل سبق وأنْ راقبتم ذبابة وهي تفرك خرطوميها الصغيرين الواحد بالآخر؟ تبدو الذبابة وهي تفعل ذلك كرجل ثري فرغ لتوه من عدِّ نقوده. إن المشكلة الرئيسة لذلك الذباب هي مستواه المعرفي. ليس للذباب لغة لأنه لا يملك مكتبات، فلو كان للذباب مكتبات لكان على قدرٍ من العلم والمعرفة. المعرفة لدى الذباب هي نوع من اللغة تشبه تمامًا لغتنا، باستثناء أننا لا نفهمها. أنا أملك من العلم والمعرفة الشيء الكثير، ولكن ما إن تطأ قدمي مكتبة الزجاجات هذه إلا وأترك المعرفة خارج الباب.

أردف السيد هنري متابعًا:

- لهذه الحانة ذبابٌ أكثر مما كان لبيلاطس من الأبناء. ولا

شك أن بيلاطس البنطي كان له عدد كبير من الأبناء، وقد حكمتُ على ذلك من خلال اسمه. فرجلٌ يحمل اسمًا كاسم بيلاطس سيترك أثره في أي شخص. أعرف أني لست بيلاطس، ولكن لدي ميزاتي الخاصة بي. من هذه الميزات امتلاكي ألطف نوع من أنواع المزاح. أما أصعب نوع من أنواع المزاح فهو امتلاك زمام المزاح الجنسي دون جرح مشاعر المستمعين. وإحدى ميزاتي أن هذا المزاح الذي أمارسه لا يتسبب في جرح المشاعر. إن جرح المشاعر أمر خطير جدًا. فحين تُجْرَح المشاعر، لا يمكن لها أن تشفى إلا بعد جهود عسيرة.

تابع السيد هنري:

- يظن اللابيون[5] بأنه يمكن لعطسة قوية أن تودي بحياة صاحبها. فهم يظنون بأنه يمكن لعطسة قوية أن تقتل صاحبها الذي عطسها، ولكنهم لو رأوا العطسة التي صدرتْ عنكَ للتو، يا سيدي العزيز، أظن بأنهم سيغيرون رأيهم. إن عطسة مثل تلك العطسة يمكن لها أن تقتل الآخرين. الأمر يشبه أن تضرب رئتا العاطس رأس المعطوس عليه. إن عطسة كالعطسة التي صدرت عنكَ للتو، يا سيدي العزيز، هي شيء ينبغي ألا يمنح لمن هب ودب.

(5) شعوب كانت تسكن شمال أوروبا. (المترجم)

فالمرء يصاب بالأمراض المعدية إذا ما أهدي هديةً كالعطسة التي عطستَها. يا سيدي العزيز! ينبغي لك أن تعرف بأنه في العصور الوسطى كان يمكن لعطسة واحدة أن تنشر الطاعون في قرية برمتها. يا سيدي العزيز، لقد ولَّى زمن العصور الوسطى، لذلك يجب عليك ألا تعطس بتلك الطريقة، يا سيدي العزيز!

تابع السيد هنري:

- كما أنه ينبغي لك يا سيدي أن تعرف أيضًا، بالإضافة لكونها عطسة مقرفة وناقلة للأمراض، أن العطسة هي دلالة على نقصٍ عميق في الأدب لديك. وليكن في معلومكَ أنني لن أغادر هذا الصرح الشهير الذي نحن فيه، وذلك فقط من باب الاحترام لصاحبه المحترم. فعطسةٌ كتلك التي صدرت عنك أسوأ من لعنة السحرة والمشعوذين. يجب أن تعرف يا سيدي العزيز بأن هذا الفعل يدل على نقص كبير في ثقافتك ومعارفك. إن عطسة كهذه العطسة يمكن أن تصدر فقط عن شخص غير مثقف وجاهل، عن طفيلي على المجتمع ممن يختارون الأماكن المشهورة لبث سمِّهم الزعاف. وبالتالي فهم يدمرون تدميرًا بطيئًا البنيان المتين الذي يقوم عليه مجتمعنا.

تابع السيد هنري قائلًا:

- سيدي العزيز! سأشرب الآن كأسًا أخرى من الأفسنتين لأحرق كل تلك الأبالسة التي أطلقتَها من أصفادها، لتهجم علينا ممتطيةً صهوة تلك العطسة الانفجارية، دون أدنى ذرة من عطف أو شفقة؛ كجلَّادي الإعدامات الذين عاشوا في العصور الوسطى. أتعلمُ، يا سيدي العزيز، بأن جلَّادي الإعدام في العصور الوسطى وضعوا أقنعةً يتخفون وراءها حتى لا يتم التعرف إليهم لاحقًا، بحيث لا يستطيع أحد نيل الثأر منهم على ما اقترفوه؟ وهل تعلم أنه في زماننا هذا لم يعد الجلَّادون بحاجة لارتداء الأقنعة، وبأنهم يحصلون على راتب ثابت من الحكومة؟ يجب أن تعرف يا سيدي العزيز بأن هذه الحكومة هي أكثر المكوِّنات المخزية في هذا البلد، ذلك أنها لا توفر الحماية لصروحٍ مثل هذه الحانة التي تنشر الثقافة في أنحاء أجسادنا كما تفعل كأس طيِّبة من الأفسنتين!

ثم أردف قائلًا:

- واعلم، يا سيدي العزيز، أنك منافق، وأرجو منك عدم التحدث معي منذ هذه اللحظة. أرجوك أن تحضر لي الفاتورة يا صاحب الحانة، وأستميحك عذرًا بسبب النزق الذي يبدو عليَّ، جلُّ ما في الأمر أنه يوجد بعض الدخلاء في صالونك ممن لا يستحقون أنْ يدوسوا بأقدامهم على هذه الأرض النبيلة.

تابع السيد هنري:

- مساء الخير يا سادتي الأعزاء عمومًا، ومساء الشر يا عدوي العزيز. ولا تنسَ أنني لست سوى كائن يشبه الفيل؛ فأنا والفيل لا ننسى أبدًا، ولن يهدأ بالي حتى أسحقك. ويجب أن تعلم بأن الفيَلة لها أسنان وليس قرون. وبغض النظر عن كافة الأمور الأخرى، يا سيدي العزيز، أنت شخص جاهل. وربما لا تعرف شيئًا عن خصائص النمل، فأنَّى لك أن تعرف شيئًا عن خصائص الفيلة! سيدي العزيز! اخرج من مجالي الجوي، فشخصٌ مثلك سيصيب البكتيريا الممرِضة أصلًا بالمرض. أنت، يا سيدي العزيز، سامٌّ أكثر من عصبةٍ من العقارب ومن تجمُّعٍ ممتلئ بالسياسيين، مع العلم أن السياسيين قد يفوقون العقارب في بث السموم. أنت، يا سيدي العزيز، لست في مقام يؤهلك للشرب على الإطلاق. أنت، يا سيدي العزيز، خطأ مجبولٌ جبلة طبيعية، خطأ مأساوي في يوم مذهل كيومنا هذا، ولولا لطف الله ورحمته لما كان يومنا مباركًا. أنت، يا سيدي العزيز، أسوأ من حيوان. وتوقَّف عن الوقوف هناك صامتًا لأن ذلك أسلوب غير مريح. يا سيدي العزيز، أنت لست سوى وحش من الوحوش؛ ذلك كل ما أريد قوله لك؛ أنت وحش، هذه هي حقيقتك. ولاتنس إحضار مظلتك غدًا لأن المطر قادم. أنتَ، يا سيدي العزيز، لا تؤمن بالله كما أنك لا تعرف كيف تشرب الأفسنتين. أنت تفتقد لضبط النفس ولا

تؤمن بالله، وأنا أعرف ذلك تمام المعرفة. إنه لإثم كبير أن لا تعرف كيف تشرب الأفسنتين بالطريقة الصحيحة. يجب احترام الأفسنتين وعدم شربه بالطريقة التي تشربه بها. أنت يا سيدي العزيز من أتباع المذهب اللاأدري[6] في كل ما تفعله. وأراهنُ، يا سيدي العزيز، أنك تتبع المذهب ذاته حتى في علاقتك مع زوجتك. أنا أمزح فقط. أنت، يا سيدي العزيز، لن تفهم ماركة المزاح التي أنتهجها، ذلك أنك جاهل وأمي وأبله. وسأبوح لك بشيء آخر أيضًا: شيء أكثر جدية بكثير مما ذكرته من الصفات السابقة: أنت، يا سيدي العزيز، لا تفقه شيئًا في الشرب. لا بلْ إنك، يا سيدي العزيز، لا تعرف حتى ما تعنيه كلمة «اللاأدري». اغضب يا سيدي العزيز وتخلَّى عن ضبط النفس. أراك غدًا، أنتَ كما أنت، تصبحون على خير جميعًا. أنت، يا سيدي العزيز، أبله. حتى في الصين لا أحد يعطس مثل عطستك.

(6) اللاأدرية اتجاه فلسفي فكري يرى بأن المسائل الدينية أو الغيبية لا يمكن تحديدها أو التعرف على صحتها. وهي ليست إلحاد أو إيمان، وإنما إيمان مع وقف التنفيذ. (المترجم)

الأساسيات المجرَّدة

إثر صمت طويل، قال السيد هنري:

- اليوم سأدخل وأخرج دون أن أنبس ببنت شفة. من اليوم فصاعدًا، سأقتصر في كلماتي على الأساسيات المجردة، لأني لاحظتُ بأن طروحاتي الموسوعية لا تلقى التقدير الذي تستحقه في هذا الصرح. واعتبارًا من اليوم، لن أفتح فمي إلَّا لأطلب المزيد من كؤوس الأفسنتين، ولن يسمعني أحد أتلفظ بكلمة أخرى حول أي موضوع آخر لأنكم، أساسًا، يا سادتي الأفاضل، لستم سوى ثلة من السكارى.

كرَّر ثانية:

- اعتبارًا من اليوم، الأساسيات فقط. أما بالنسبة للمعلومات، سأتوقف في هذه اللحظة بالذات عن الإدلاء لكم بها. أعطني كأسًا أخرى من الأفسنتين، يا سيدي العزيز.

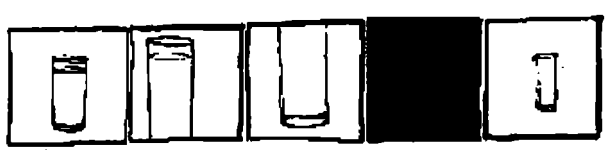

عن سلسلة "الحي"

فيليب غراهام

أستاذ الكتابة الإبداعية ومحرر روائي في مجلة ناينث لِتَر
جامعة إلينوي، أوربانا-تشامبين، الولايات المتحدة الأمريكية
مؤلف كتاب أيها القمر: أقبل إلى الأرض: رسائل من لشبونة

إن الترجمة الإنكليزية لسلسلة روايات «الحي» هي أول الغيث العميم لأحد أهم أعمال الكاتب البرتغالي غونزالو تافاريس وتقديمه لجمهور القراء في الولايات المتحدة الأمريكية. ويعتبر تافاريس أحد أعظم الكتاب البرتغاليين الأحياء. وبالرغم من بلوغه الأربعين منذ مدة وجيزة، فقد بنى لنفسه مكانة في تاريخ الأدب البرتغالي. ورغم أنه لا يزال غير معروفٍ نسبيًا في أمريكا الشمالية (حيث نشرت دار دولكي أركايف روايته القدس عام 2009)، إلَّا أنَّ أعماله حصدت عددًا كبيرًا من الجوائز، ناهيك عن ترجمتها وحصولها على الثناء والتقدير في أكثر من خمسة وأربعين بلدًا من بينها إنكلترا وإسبانيا وإيطاليا والهند وبولندا وفرنسا وكوريا الجنوبية واليونان وألمانيا والأرجنتين. وتحوَّلت أعماله في بلده البرتغال إلى مسرحيات وترانيم دينية وعروض أوبرالية.

كان أول عهدي بالتعرف على أعمال تافاريس أثناء حضوري

المؤتمر الدولي التاسع للقصة القصيرة الذي عقد في العاصمة البرتغالية لشبونة في شهر يونيو من سنة 2006. كان الجميع يلهج باسم تافاريس في المؤتمر، فقد فاز بجائزة خوسيه ساراماغو الأدبية في العام الفائت وذلك عن روايته الثالثة «القدس» – كما أن ساراماغو نفسه، وهو الحاصل على جائزة نوبل للآداب، لم يتورَّع أبدًا عن كيل المديح والثناء لتافاريس حين قال: «إن رواية «القدس» رواية عظيمة، وتستحق بجدارة أن تنال مكانتها ضمن الأعمال العظيمة في الأدب الغربي. قد لا يستطيع أي شخص كان أن يكتب بمثل تلك الجودة والبراعة التي يكتب بها تافاريس وهو في سن الخامسة والثلاثين. لذا أشعر برغبتي في لكمه في وجهه غيرةً وغبطة!»

وعندما حضرتُ الأمسية التي قدَّم فيها تافاريس قراءات من قصصه في مؤتمر لشبونة الأدبي، استمتعت للمرة الأولى لمختارات من السلسلة الروائية المعروفة بالبرتغالية بعنوان (Os Senhores) والتي ترجمت إلى الإنكليزية بعنوان (The Misters) أي «السادة»؛ وهي مجموعة الروايات القصيرة التي تشكل بمجموعها سلسلة كتاب «الحي». وقد أدهشني على الفور الإيجاز والجزالة اللذان يميِّزان أسلوبه الكتابي. وقبل توجهي للبرتغال لحضور فعاليات المؤتمر المذكور، طلبتْ مني هيئة

تحرير المجلة الأدبية المعروفة باسم هنْغَر ماونتن أن أساهم في إعداد ملف خاص عن الأدب الروائي البرتغالي المعاصر يضم بين دفتيه الكتَّاب الذين صادفتُهم في المؤتمر. ولهذا لجأت إلى أسهل قرار يمكن للمرء أن يتخذه بأن ضمَّنتُ ذلك الملف خمس قصص قصيرة من كتاب السيد هنري وست قصص أخرى من كتاب السيد بريشت وهما من ضمن سلسلة «الحي» التي ألَّفها تافاريس. وباعتباري المحرر الأدبي لمجلة نااينث لِتَر التي تعني بشؤون الأدب والفن، فقد قمت أيضًا باختيار خمسة أعمال مختارة للنشر من رواية السيد فاليري. وهذه النصوص المحدودة تمثل الانطلاقة الأولى لظهور أعمال تافاريس باللغة الإنكليزية في الولايات المتحدة الأمريكية. أما الآن، وفي ظل هذه الترجمة الضخمة التي بين أيدينا، والصادرة عن مطبعة جامعة تكساس التقنية، فستتاح لجمهور القرَّاء في أمريكا الفرصة للاستمتاع ببراعة العالم الخيالي الفريد الذي يصوغه تافاريس من خلال ولادة هذا النص الأنيق الذي خطت ترجمته الإنكليزية البديعة أنامل المترجمة روبانجالي روي.

وقد يكون خليق بنا أن نعرِّف القارئ الذي لم يسبق له الاطلاع على أعمال تافاريس الكاملة من خلال مناقشة الرسومات التي أبدعتها زوجة تافاريس وشريكته في الأعمال الأدبية لمدة طويلة،

الفنانة راتشيل كايانو، وخصوصًا اللوحة التي رسمتها التي تمثِّل خريطة الحي، حيث تظهر فيها الشوارع الضيقة والمباني المتلاصقة التي تمثِّل حيًا تقليديًا في مدينة لشبونة. وقد رسمتْ كايانو في خريطتها التي أبدعتها في الطبعات الأولى من سلسلة «الحي» أربع شخصيات فقط من سكان الحي وهم السيد فاليري والسيد هنري والسيد بريشت والسيد خواروز، مع العديد من الشقق المحيطة بهم وهي فارغة من ساكنيها. ومع اتساع رقعة مشروع تافاريس الروائي، أضاف إلى الحي كل من السيد كالفينو والسيد كراوس ومن ثم السيد فالْسِر. وحتى تاريخ كتابة هذه السطور ينتشر، لحسن الحظ، على الخريطة التي رسمتها كايانو تسعة وثلاثون اسمًا. وبالرغم من أن عشرة من هؤلاء السادة فقط قد ظهروا حتى الآن بشكل كتب مستقلة (وبعضها ما يزال بانتظار ترجمته للإنكليزية)، فهي تمثِّل بمكنوناتها النمو المتواصل لسلسلة «الحي» في المستقبل.

أما بالنسبة لرسومات كايانو الموجودة في داخل كتب السلسلة، فتعكس أساليبها الفنية المتبدلة ما يضمه كل كتاب من كتب السلسلة من ذلك الجمع الفريد بين الغرائبية الطريفة والجدية. ويبدو العديد من تلك الرسومات بحق مرتبطًا ارتباطًا عضويًا معقدًا بكل قصة على حدة، ومن أمثلة ذلك الحزن الرهيف

لدُرْج خزانة السيد خواروز المملوء بالفراغ؛ أو الخطوط الإضافية للقبعة المستديرة التي يعتمرها السيد فاليري؛ أو الظلال العريضة المحيِّرة لمكتب المدير في قصة السيد كراوس؛ أو الخربشات الجنونية التي تخطط التفكيك الودي للمنزل الريفي للسيد فالْسِر.

ولا بدَّ أن قارئ هذه المقدمة قد لاحظ بالتأكيد أن كافة السادة يستدعون في الذاكرة شخصيات أدبية بارزة. إذ تمارس تلك الشخصيات أدوارها الروائية، إلى حد ما، في نطاق ما نعتقد أننا نعرفه من معلومات عن تلك القامات الأدبية، والأهم من ذلك ما نعرفه عن كتاباتهم. فالسيد كالفينو بالطبع هو النسخة الأدبية عن كاتب الحكايات الإيطالي إتالو كالفينو؛ أما السيد فاليري ففيه تلميح للشاعر والناقد الفرنسي بول فاليري؛ أما السيد خواروز فهو نسخة ما من الشاعر الأرجنتيني روبرتو خواروز؛ والسيد فالْسِر عاشق العزلة (إذْ قد يلاحظ المرء بأن بيته يقع على مسافة بعيدة من المباني السكنية الأخرى الموجودة على خريطة الحي التي رسمتها كايانو) يمثل روبرت فالْسِر، الكاتب السويسري المأزوم نفسيًا الذي أدمن السير وحيدًا لمسافات طويلة؛ وتعكس قصص السيد كراوس النقمة السياسية واللغوية للكاتب النمساوي كارل كرواس، أما النفس المخمورة للسيد هنري فهي شذرة منبثقة من شخصية الكاتب هنري ميشو الذي ينتمي للسوريالليين الجدد والذي عكف

على تجريب شتى أنواع المخدرات أملًا منه في اكتشاف العوالم الداخلية للإنسان. ورغم ما سقناه من إرهاصات لتشابه شخصيات الحي مع شخصيات أدبية حقيقية، فإن كتب سلسلة «الحي» لا تقتصر على إرسال رسالة مباشرة عن تلك الإرهاصات، ولكنها بدلًا من ذلك تفضي بنا إلى مآلات واحتمالات مختلفة - منها الشخصي ومنها الفلسفي - الناتجة عن المعرفة الأساسية بهؤلاء الكتَّاب الذين شكَّلوا مصدر إلهام لتافاريس. وستسيطر مشاعر الحبور والسرور بلا شك على القرَّاء الذين يعرفون عز المعرفة أعمال الشاعر الأرجنتيني روبرتو خواروز من خلال الإشارة الخفية التي يلمِّح بها تافاريس لما يسمى «بالشعر العمودي» الذي يميِّز ذلك الشاعر عندما يقول السيد خواروز في حكاية «الحي» (حيث يخاف السيد خواروز من صعود السلالم النقَّالة): «إذا ما أخذنا في الحسبان بأن السقوط ليس سوى تغيير بسيط في الموقع؛ أو تغيير في وضعية الجسم على طول مسار السقوط العمودي، فحينها لن يكون السقوط مرعبًا جدًا». بيدَ أن هذه المعرفة الداخلية ليست ضرورية للاستمتاع بالفصل الذي عنوانه «السقوط» في رواية السيد جواروز. والشيء بالشيء يذكر، إذ لا نحتاج لأن يعرف بأن كارل كراوس كان يعتقد بأن سوء استخدام اللغة يعادل سوء استخدام السلطة لكي نستمتع بتلاعب المدير بالكلمات في

رواية السيد كراوس، حيث يتبادل المدير الشديد الحرص الحوار التالي مع أحد مساعديه:

«لا يكفي الحصول على آراء الآخرين؛ بل من الضروري تفسير تلك الآراء. فحتى عندما يرسمون مجرد إشارة صليب، يجب أن نعرف ماذا يقصدون؟ ينبغي لكل رأي شخصي أن يفسَّر باستخدام عدسة مكبرة، وأنَّى لأحدٍ أن يقوم بذلك غير أولي العلم وأهل الاختصاص.

«أولئك الذين...؟»

«أولئك الذين أسميهم: أهل الاختصاص في ذاتي البشرية.»

وهكذا لا نتفاجئ بأن المدير يعلن على الفور بأن أفضل هؤلاء المختصين في النفس البشرية هو الشخص نفسه، إذ نجده يقول: «إنه أنا، نعم أنا! أنا من سيفسر تفسيرًا موضوعيًا الآراء غير الموضوعية التي يتبناها الآخرون.»

وفي حين أن سخرية معيَّنة، بارعة المواربة، مشوبة بالمرارة كهذا المثال الذي ذكرناه آنفًا، تخلق جوًا يميز كتب سلسلة «الحي»، فهي سخرية دائمًا ما تقترن مع حكمة فلسفية وجدية عميقة في مدلولاتها. ويمكن قراءة قصص روايات سلسلة «الحي» بحد ذاتها قراءة سريعة، ولكنها تظل بحاجة إلى اهتمام وقراءة ثانية بنسق أقل بطئًا. وفي العديد من المواضع، ترشد تلك الروايات

القارئ إلى سبل قراءتها. فالحس الفكاهي يحثنا على الغور في القراءة، ولكننا ما نلبث أن نفهم رويدًا رويدًا بأن ذلك الحس الفكاهي يشبه ألغازًا لا حلول لها تسيطر على العالم؛ حس فكاهي تُقدَّم فيه الحماقات الشخصية والمنطقية والسياسية بطريقة تبدو فيها وكأنها تفكك ذاتها، مع الاحتفاظ بشكل مذهل ببنيانها قائمًا متينًا. إذ نرى بأن السيد خواروز، الذي يرى أن التفكير أرفع شأنًا من الانخراط الحسي في العالم، يمتلك دُرْج خزانة أثيرٌ على قلبه وقد ملأه بالفراغ، بسبب الإحباط المسيطر على زوجته الصبورة. أما السيد فاليري فهو قصير القامة، ولكن ونظرًا لأنه يقفز كثيرًا، كان بإمكانه أن يزعم قائلًا «أنا ككل الرجال الطوال القامة، باستثناء أنني طويل لمدة زمنية أقصر منهم».

وتتجلى عبقرية كتاب تافارايس في أنه يُسْبِغُ على أفكاره العميقة أسلوبًا سهلًا جزلًا بطريقة موارِبة، مما يمكِّنه من نيل رضا وإعجاب جمهور غفير من القرَّاء. وللدلالة على ذلك دعوني أروي لكم القصة التالية كحجة على ما أقول. فقد أُغْرِمت ابنتي حنَّا، التي كانت في الحادية عشرة من عمرها عندما أقمتُ وعائلتي لمدة سنة واحدة في البرتغال، بكتابات تافاريس. وكان تافاريس في غاية اللطف عندما وافق على قراءة مجموعة من كتاباته في المدرسة البرتغالية حيث كانت تدرس، وعندما وصل إلى المدرسة قدَّم

له طلاب الصف السادس عرضًا كمفاجأة له، حيث قاموا بتقديم أداء تمثيلي مفعم بالحماس والحيوية للعديد من القصص الواردة في سلسلة «الحي». وقد ذهلتُ ذهولًا عظيمًا بالتأثير الذي تركته كتاباته على الصغار قبل الكبار، رغم عدم معرفتهم علم اليقين بالشخوص الحقيقة التي يرمز إليها كل من السيد خواروز أو فاليري أو غيرهم من شخصيات المجموعة.

وكما يرى معظم النقاد، يعدُّ التخيل المدهش لتافاريس من خلال التقمص البلاغي لشخصيات عمله لبعضٍ من أعظم الكتَّاب ممن ينتمون إلى عصر الحداثة وما بعدها مشروعًا متأصلًا أصالة ثابتة الجذور. ومع ذلك يمكن القول بأن السيدين «الحقيقيين» فاليري وهنري كانا الملهمين الأساسيين لسلسلة روايات «الحي» التي ما فتئ مبدعها يرفدها بشخصيات جديدة؛ دون أن ننسى أيضًا أنهما ملهمين أيضًا، بشكل ينطوي على قدر من السخرية، من خلال شخصيتيهما اللتين ابتكرهما تافاريس ابتكارًا. وإذا ما تأملنا الشخصية الرئيسة في رواية السيد تيست، وهي الرواية الوحيدة التي كتبها بول فاليري، نجد أن السيد تيست رجل لطيف على درجة مفرطة من الخجل وهو يحاول العيش في ظلال مبادئه الفكرية، وكذلك شخصية بلوم التي أبدعها هنري ميشو في مجموعته الشعرية النثرية المسمَّاة ريشة، سنجد أن

هاتين الشخصيتين تشتركان في الكثير من النقاط مع شخصيتي السيد هنري وفاليري الأنيقتين في «الحي». فهما شخصيتان مضطربتان، ومع ذلك تتحليان بالحكمة بشكل يثير الدهشة. فعلى سبيل المثال، نجد في إحدى القصائد النثرية لميشو، وعنوانها «رجل مغلوب على أمره» أن بلوم يستيقظ ليكتشف بأن جدران بيته اختفت، بيد أن ذلك الأمر لا يترك فيه سوى أثر لا يكاد يذكر إذْ ما يلبث أن يتابع نومه. وعندما يستيقظ مرة أخرى، يمر قطار فوقه وفوق زوجته، ولكنه يخلد للنوم على ذات المنوال الآنف الذكر. وعند استيقاظه مرة أخرى، يكتشف بأن أجزاءً من جسد زوجته لا تزال هناك وقد تركها القطار العابر، ولكن النعاس يغلب جفونه مرة أخرى. إن رباطة الجأش (الناعسة تلك) التي يواجه بها بلوم الكوارث التي تحصل في التناقض الصارخ بين الحلم وعوالم اليقظة تحيلنا إلى قصة «الحلم الأول للسيد كالفينو» في سلسلة الحي، إذ يتمكن السيد كالفينو أثناء سقوطه من بناء ارتفاعه ثلاثين طابقًا من ربط أنشوطة حذائه وربطة عنقه قبل لحظات من «ملامسة الأرض سليمًا معافى». أما في رواية السيد هنري فنجد أن هنري في قصة «النظرية» يقدِّم قفزات منطقية ربما تكون مصدر فخر للسيد تيست، وها أنذا أسوق لكم ذلك المقطع كاملًا من القصة المذكورة:

قال السيد هنري:

- اخترع الهاتف ليتسنى للناس التحدث مع بعضهم من مسافات بعيدة. واخترع الهاتف ليبعد الناس عن بعضهم البعض، وشأنه في ذلك شأن الطائرات. فقد اخترعت الطائرات بحيث يستطيع الناس العيش بعيدين عن بعضهم. لو لم توجد الهواتف والطائرات لعاش الناس معًا.

وتابع قائلًا:

- هذه مجرد نظرية، ولكن فكروا بها، يا أصدقائي. ما يحتاج المرء القيام به هو أن يفكر في اللحظة المناسبة التي لا يتوقعها الناس. تلك هي الطريقة التي تفاجؤونهم بها.

وقد يكون السطران الأخيران تعريفًا عمليا للنهج الذي يتبعه تافاريس القائم على إرباك القارئ في كل صفحة من صفحات كتاب «الحي».

وأيًا تكن تأثيراته، فقد شيَّد غونزالو تافاريس لنفسه بنيانًا خياليًا لا يشبه أبدًا أي بنيان لأي كاتب برتغالي آخر. ومع ذلك تبقى حساسيته الأدبية متجذرة تجذرًا عميقًا في ثقافة بلده، ناهيك عن تجذرها خصوصًا في الحب والاحترام اللَّذين يكنُّهما للكتَّاب. إن أسماء الشعراء والكتاب، المعاصرين منهم والكلاسيكيين، غالبًا ما يتم تقديمها بشكل أسئلة في برامج المسابقات التلفزيونية في

البرتغال. كما تهتم الصحف والمجلات بتقديم محفزات لشراء نسخها بشكل عملات معدنية قابلة للجمع تحفر عليها وجوه المؤلفين، أو تصدر طبعات بعدد نسخ محدود من آخر الأعمال الشعرية لشاعر من الشعراء. عندما أقمتُ في لشبونة كان أشهر برنامج مسابقات تلفزيونية هو برنامج تلفزيون الواقع المسمى (A Bella e o Mestre) حيث أن ثلاثة من أعضاء لجنة التحكيم البالغ عددهم أربعة هم من الكتَّاب. وقد أصبح شاعر القرن العشرين العظيم فرناندو بيسوا بعد وفاته أشبه ما يكون ببطل قومي في البرتغال، حيث استمرت طبعات جديدة من أعماله في الظهور عدا عن انتشار صوره على القمصان وأكواب القهوة وحمَّالات المفاتيح والدفاتر وفواصل الكتب وقطع البورسلان المزخرف، لا بلْ إن صوره تعدَّت كل تلك الأشياء حتى رسمها البعض على لوحات التنبيه بعدم الإزعاج التي تعلَّق على أبواب الغرف والتي احتوت على اقتباسات من شعره (ويوجد واحدة منها على باب غرفتي) يقول فيها: «إن شاء الله، سأنام، لأن عملًا أدبيًا جديدًا يشهد مخاضه الآن!»

ولكن بيسوا ليس الكاتب البرتغالي الوحيد الذي لا يزال الناس يحيون إرثه بكل حب واحترام. فعندما توفي الشاعر والفنان السريالي ماريو سيزاريني في شهر نوفمبر من عام 2006

خصصت كل الصحف الصادرة في العاصمة لشبونة صفحاتها الأولى وكامل الصفحات الست أو السبع التي تلتها على الأقل للحديث عن حياته وأعماله. ونالت الشاعرة فياما هاس بايس برناداو على الاهتمام نفسه عند وفاتها بعد ذلك ببضعة أشهر. وأينما وجهت ناظريك في لشبونة، تجد أن الشوارع والمنتزهات قد سميت بأسماء روائيين وشعراء وصحفيين؛ كما تنتصب شامخةً تماثيل أبرز الكتَّاب البرتغاليين في منتصف الساحات العامة وعلى جنبات الطرق الرئيسة. وحتى المدن الصغيرة لا تخلو من تماثيل لشعراء محليين أقل شهرة ومكانة.

هناك سبب لهذا التقليد المتوارث من الإعجاب بالأدب؛ سببٌ ذو جذور ثقافية وتاريخية متأصلة، حيث يقوم جزء كبير من الهوية الوطنية البرتغالية على المآثر غير المسبوقة التي أقدمت عليها تلك البلاد من خلال امتطاء صهوة الكشوفات الجغرافية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين. فالاكتشافات العظيمة التي أدت لنشوء الإمبراطورية البرتغالية التئمت مع فجر انبثاق أوائل الأعمال الأدبية البرتغالية الحديثة، ولا يقتصر ذلك فحسب على أعمال لويس دي كامويس الذي كان هو ذاته مستكشفًا أيضًا، حيث احتفى عمله الأدبي الرئيس المتمثل بالقصيدة الملحمية اللوسياد باكتشافات فاسكو دي غاما، ولكننا نجد أثر ذلك أيضًا في

المسرحيات التي تموج بالشك التي ألَّفها الكاتب المسرحي جيل فيسنتي. وفي حين تجري تلك المغامرات التي جابت أرجاء الكرة الأرضية في الماضي البعيد، فأنا أعتقد بأن البرتغاليين يعتبرون أن كتَّابهم يتابعون مسيرة المستكشفين وإرثهم، رغم أنه يأخذ الآن منحى آخر؛ فهم مكتشفون لا يشق لهم غبار للإمبراطوريات الداخلية لبني الإنسان.

فلا عجب إذن من احتضان البرتغاليين لأعمال غونزالو تافاريس، التي غالبًا ما تحتفي احتفاءً هزليًا رشيقًا بالحالات الذهنية والفكرية لكتَّاب مشهورين. ويعد كتاب المكتبة أول ما أينع من أعمال تافاريس الأدبية، إذ نشر في عام 2004، وهو تاريخ قريب من تاريخ ظهور أولى روايات سلسلة «الحي». يضم كتاب «المكتبة» في صفحاته زهاء ثلاثمائة قصيدة نثرية قصيرة، تتناول كل قصيدة منها كاتبًا مختلفًا، من الكاتب الأرجنتيني أدولفو بيوي كاساريس إلى الأديب الصيني زانغ كيجيو. ويلجأ تافاريس في كتاب المكتبة لاستخدام أسلوب كتابي يشبه ذلك المستخدم في سلسلة كتاب «الحي»، ويتجلى ذلك من خلال خلق فسحة مكانية يمكن من خلالها لخيال الكاتب الذي تتحدث عنه القصيدة أن يصول ويجول. تشبه تلك القصائد النثرية البذور الصغيرة، وتشبه موضوعاتها الموضوعات التي تناولتها قصص سلسلة

«الحي» الموجودة في هذا الكتاب الذي بين أيدينا، في حين تُرِكت شخصيات أدبية أخرى مثل ميشيما وفرجينيا وولف (آن لنا أن نفرح لظهور شخصية أدبية نسائية أخيرًا!) وغوغول لتكون إضافات للأجزاء القادمة المتوقَّعة من سلسلة «الحي».

ويبوح لنا كتاب «المكتبة» بمضامينه وكأنه نزهة في الشطآن المتنوعة للتأثير الذي يجمع بين أعمال تافاريس وجوهر مكتبته الشخصية - ولا نقصد المكتبة برفوفها وكتبها، بل تلك المكتبة القابعة داخل رأسه. وهذا هو السر، برأيي، الذي يربط تافاريس ارتباطًا لا تنفصم عراه مع القارئ، السر الذي يموج في العوالم الدائمة الاتساع داخل الحي. ففي كل واحد منا مكتبة داخلية؛ في كل واحد منا ذلك الصخب الداخلي للخيالات المختلفة للكتَّاب الذين نحبهم ونعجب بهم؛ في كل واحد منا تلك المكتبة التي تحتفظ في سراديبها بجبروت العوالم الخيالية لذلك الصنف من الكتاب كلما تقدم بنا العمر وتلاشت معه التفاصيل الدقيقة لكتبنا المفضلة. يبقى جبروت الخيال، إذن، ويتحول إلى حي شخصي بكل ما في الكلمة من معنى. عندما نزور حي تافاريس، بمبانيه وبيوته المبنية من الكتب، فإننا نزور أيضًا نسخة عن ذواتنا.

وقد ورد عن جوزيه ساراماغو، الذي صرَّح ذات مرة بكل خفة ودعابة بأنه يرغب بضرب تافاريس بدافع الغيرة منه، أنه قال، وإنْ

بأسلوب أقل تهديدًا: «لقد اقتحم غونزالو تافاريس المشهد الأدبي البرتغالي مدججًا بخيال أصيل كل الأصالة، وقد تخطَّى به كل الحدود التقليدية للخيال. وأتوقع أنه سيفوز بجائزة نوبل للآداب خلال مدة ثلاثين عامًا، أو ربما قبل ذلك، وأنا على يقين من أن نبوءتي ستتحقق. الشيء الوحيد الذي يؤسفني هو أنني لن أكون هناك لأبارك له فوزه وأعانقه عناق المهنئين».

هذا هو حال الدنيا إذًا، فما من أحد يعلم المخبوء في المستقبل. كل ما نعرفه الآن، للأسف، هو أن ساراماغو، الذي رحل عن عالمنا في عام 2010، لن تتاح له الفرصة لعناق تافاريس وتهنئته بالفوز بجائزة نوبل فيما لو فاز بها. وإنْ حصل وفاز تافاريس بالجائزة، فإن إنجازه المتمثل في النمو السكاني المطرد للحي الذي أنشأه في عمله الأدبي سيكون عاملًا مهمًا في منحه تذكرة سفر لاستلام جائزة نوبل في العاصمة السويدية ستوكهولم.

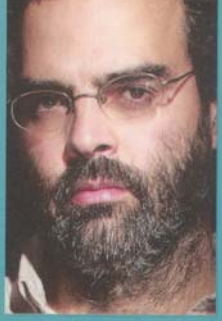

غونزالو تافاريس

السيد فنري

وقد يكون خليق بنا أن نعرِّف القارئ الذي لم يسبق له الاطلاع على أعمال تافاريس الكاملة من خلال مناقشة الرسومات التي أبدعتها زوجة تافاريس وشريكته في الأعمال الأدبية لمدة طويلة، الفنانة راتشيل كايانو، وخصوصًا اللوحة التي رسمتها التي تمثِّل خريطة الحي، حيث يظهر فيها الشوارع الضيقة والمباني المتلاصقة التي تمثِّل حيًا تقليديًا في مدينة لشبونة. وقد رسمتْ كايانو في خريطتها التي أبدعتها في الطبعات الأولى من سلسلة "الحي" أربع شخصيات فقط من سكان الحي وهم السيد فالري والسيد هنري والسيد بريشت والسيد خواروز، مع العديد من الشقق المحيطة بهم وهي فارغة من ساكنيها. ومع اتساع رقعة مشروع تافاريس الروائي، أضاف إلى الحي كل من السيد كالفينو والسيد كراوس ومن ثم السيد فالْسِر. وحتى تاريخ كتابة هذه السطور ينتشر، لحسن الحظ، على الخريطة التي رسمتها كايانو تسعة وثلاثون اسمًا. وبالرغم من أن عشرة من هؤلاء السادة فقط قد ظهروا حتى الآن بشكل كتب مستقلة (وبعضها ما يزال بانتظار ترجمته للإنكليزية)، فهي تمثِّل بمكنوناتها النمو المتواصل لسلسلة "الحي" في المستقبل.

- فيليب غراهام

ISBN
9 789921 712018

دار الخان للنشر والتوزيع

@DarAlkhan_kw Info@daralkhan.com

جميع الحقوق محفوظة